الفصل الثالث

أهمية الأفراد

لما ظهرت المقالة السابقة حول عظماء الرجال وبيئتهم ظهر لها جوابان ، ـ أحدهما فى صحيفة ٣٥١ من الجزء السابع والأربعين من Atlantic Monthly تحت عنوان «أصل النبوغ» لألّن (Grant Allen) ، والآخر فى نفس المصدر ص ٧٥ تحت عنوان «علم الاجتماع وتقديس الأبطال» لفسكى (John Fiske) . ومقالى الآتى جواب لمقال ألّن .

بنى ألّن احتقاره لفكرة تقديس الأبطال على بعض الاعتبارات الهيّنة . فهو يرى أن العظماء فى الجماعة لايختلفون عن المستوى العام إلا قليلاً . فليست البطولة إلا مجموعة خاصة من الصفات الشائعة فى الجنس . وليست الفروق الزهيدة التى طبعها على العقل الإغريقى أفلاطون (Plato) أو أرسطو (Aristotle) أو زينون (Zenon) ، إلا شيئاً لايذكر بالنسبة لتلك الفروق العظمى الموجودة بين العقل الإغريقى والعقل المصرى أو العقل الصينى مثلا . ويحق لنا أن نهملها فى تاريخ الفلسفة ، كما نهمل ، فى تقدير المسببات الحركة ، بعض القوى الضئيلة الناشئة عن احتراق قطعة جيدة من الفحم . وليس الذى يضيفه كل فرد للجماعة إلا جزء لايذكر بجانب مايستمد هو من آبائه أو من أسلافه الأوائل عن طريق غير مباشر . وإذا كان مايستمده البطل من الماضى أكثر ضخامة مما يَمُد هو به المستقبل ، فإن الذى ينبغى أن تعنى به الفلسفة هو الأول دون الثانى . فمشكلة عالم الاجتماع تتعلق بما يوجد الحد الوسط من الرجال ؛

وأما الشواذ منهم وما ينتجون فقد تفترضهم الفلسفة افتراضاً ، لأنهم أقل من أن يستحقوا بحثاً عميقاً .

ولأنني الآن أرغب فى أن أتناقش مع أللّن فى لباقته التى لاتبارى ، وفى أن أكون مسالماً بقدر الإمكان ، فسوف لا أكابر فيما أتى به من حقائق ، وسوف لا أبالغ فى الهوّة بين مستوى أرسطو أو جوتيه ، أو نابليون وبين المستوى العادى فى أممهم المتعددة . دعنا نفترضها ضيقة كما يظن أللّن . وكل ما أمارى فيه الآن هو ادعاؤه أن حجم المفارقة وحده هو الذى يقرر استحقاق تلك المفارقة أو عدم استحقاقها لأن تكون موضعاً مناسباً لبحث فلسفى . حقاً ، إن التفاصيل تختفى عند النظرة العامة ، ولكن النظرة العامة تختفى ، أيضاً ، عند التفاصيل . فأى وجهات النظر أحق بالاعتبار فى نظر الفلسفة ؟ لاتُحِير الطبيعة جوابا ، لأن كلا من وجهتى النظر طبيعى ، لأنه حقيق وواقعى ؛ وليس هناك من حقيقة واقعية ، كحقيقة واقعية ، أكثر تأكيداً من الأخرى . ذلك التأكيد والترتيب بين الحقائق لايوجده إلا اهتمام الناظر إليها ؛ وإذا كانت المفارقة الزهيدة بين النابغة وبين المستوى العادى لقبيلته تهمنى كثيراً ، وكان أللّن لايهتم إلا بالمفارقة الكبرى بين هذه القبيلة وبين قبيلة أخرى ، فسوف لاينتهى مابيننا من جدل حتى تتكوّن فلسفة كاملة ، وتعتبر كل المفارقات من غير تحيز أو تعصب ، ثم تبرر موقفى وموقفه .

سمعت أحد النجارين مرة يقول : «إن المفارقة بين كل فرد وآخر لزهيدة جداً ؛ ولكنها على غاية من الأهمية » . هذه تفرقة عميقة وحقة . إذ لايعنى الفيلسوف بحجم المفارقة فحسب ، بل بمكانها ونوعها كذلك . فالقيراط صغير حقاً ، ولكنا نعرف المثل حول إضافة قيراط واحد إلى أنف الإنسان . فعندما ينقد كل من سبنسر وأللّن

بتمجيد الأبطال ، فإنهما لا يفكران إلا فى حجم القيراط ؛ وأما أنا ، كممجد لهم ، فإنى أفكر فى مكانه ووظيفته أيضاً .

هنالك قانون واضح ، لم يفكر فيه ، على ما يبدو ، إلا القليل ، وهو هذا : إن الذى يعنينا من المفارقات أكثر من غيره هو تلك المفارقة التى لا نأخذها قضية مسلمة. فنحن لا نطرب أو نتيه عجبا لأن لصديقنا ذراعين وأن له قدرة على الكلام ، وأنه يتصف بكل الخصائص الإنسانية ؛ ولا يزعجنا أيضا أن نعلم أن كلا بنا تمشى على أربع وأنها لا تفهم حديثنا . ولأننا لا ننتظر من النوع الأخير أكثر من هذا ، ولا من من الأصدقاء أقل من ذلك ، فإنا نحصل من كل منهما على كل ما نرجو . ونحن ، لهذا ، راضون . فلا نفكر فى أن نتحدث مع كلابنا فى موضوعات فلسفية ، ولا أن نحك رؤوس الأصدقاء بالأظافر ، أو نرمى إليهم بالفتات فيسرعون لالتقاطه . ولكن إذا ارتفع كل منهما أو انخفض عن المستوى المرجو ، فإنه يثير فينا بعض الانفعالات الحادة . فلا نمل الإسهاب حول نبوغ صديق لنا أو حول رذائله ؛ ولكنا لا نفكر فى أنه ذو رجلين وفى أنه لا وبر له . قد يطربنا ما يقول ، وأما قدرته على التكلم فلا تثيرمنا ساكنا . والسبب فى هذا هو أن فضائله ورذائله وأقواله كان يمكن أن تكون خلاف ما هى عليه الآن ، وتكون فى الحالين منسجمة مع مدى المفارقات فى الجماعة ، بينما أن صفاته الحيوانية والإنسانية كانت لا يمكن أن تختلف عما هى عليه . فهنالك ، إذن ، منطقة خطر فى المسائل الإنسانية يتوجه إليها الإهتمام كله ؛ وأما البقية منها فترجع إلى المستوى الميكانيكى البحت . تلك هى المنطقة الكيفية ، وهى المنطقة التى لم ترسخ بعد فى المستوى العادى للجماعة ، فليست وصفا مميزاً لها ، ولا ميراثاً لها ، وليست كذلك عنصراً ثابتا فى الجماعة التى ظهرت هى فيها . إنها تشبه تلك الطبقة الهشة تحت لحاء الشجرة ، التى تجرى فيها الحياة ، والتى تتكون على مر السنين والأيام من أجزاء

متعاقبة يتلو بعضها بعضا . وتلك الطبقات الهشة فى الكمال الإنسانى ، التى جاءت واحدة تلو الأخرى ، هى التى تميزنى عن رجال أواسط أفريقيا الذين جروا وراء ستانلى (Stanley) قائلين « هذا لحم هذا لحم! » . وعلى رأى أللّن ينبغى أن تشغل تلك المفارقة العظمى انتباهى أكثر من تلك المفارقة الزهيدة بين شخصين متحدى الذوق مثلى ومثل أللّن ، ولكن، على الرغم من أننى لا أفاخر بأن رؤية شخص من الأشخاص لا تسيل لعابى ولا تثير عندى شهية لأكل اللحم ، فإنى أعترف بأنى أشعر بكثير من الفخر والسرور ، حينما لا أبدو أمام اللاّ أقل من أللّن فى هذا الجدل المهم . وإننى، وأنا مدرس ، أشعر بأن المفارقة العقلية بين أقدر طلابى وأضعفهم أهم وأدعى للاعتبار من المفارقة بين هذا الأخير وبين المستدق من الأسماك . حقاً ، إننى لم أفكر فى تلك المفارقة الأخيرة إلا الآن . فهل يقول أللّن حقاً إن هذا كله عبث إنسانى ، وإنها فروق عديمة الأهمية ؟

تبدو المفارقة بين كاتبين من كتاب الجنس الأبيض زهيدة جداً فى نظر رجال Veddas ، إذ يرون نفس الملابس ، ونفس المنظار ، ونفس الطبيعة التى لا تضر ولا تؤذى ، ونفس النقش على الورق ، ونفس الانكباب على الكتب ، ويقولون « هما اثنان من الرجال البيض ، لانرى ما يميز أحدهما عن الآخر » . ولكن ماأعظم المفارقة بينهما حتى فى رأيهما . فكّر يا أللّن فى اختلاط الأمر بين فلسفتك وفلسفتى من حيث إنهما طبعا فى مجلة واحدة ، ولا تتمكن نظرة Veddas من التمييز بينهما ! وسترتعد أجسامنا من تلك الفكرة .

ولكن أللّن فى الحكم على التاريخ يفضل أن يضع نفسه مكان Veddas ، وأن يرى الأشياء جملة وخارجة عن مستوى النظر على أن يرى تفاصيلها . حقاً ، إن هناك أشياء ومفارقات يمكن أن ترى من هذه الناحية أو من تلك الناحية . ولكن ماهو

الأكثر منها أهمية للإنسان والذى يستحق منه كثير الاعتبار ، أهى المفارقات الكبار أم الصغار ؟ فى الإجابة عن هذا السؤال ، توجد كل المفارقات بين ممجدى الأبطال و علماء الاجتماع . وكما قلت آنفا ، إنه خلاف حول أى الأمرين أحق بالتأكيد ؛ وكل ما يمكننى الآن أن أقدمه هو أن أبيّن الأسباب التى دفعتنى لأن أفضل الوجهة التى ذهبت إليها .

إن منطقة الاختلافات الفردية والتشعبات الاجتماعية لمنطقة العمليات المكيِّفة ؛ وهى المنطقة القوية للكثير من المهمات المتأرجحة المضطربة ؛ وهى المنطقة التى يلتقى عندها الماضى والمستقبل . إنها مسرح لكل مالا نأخذه قضية مسلمة ، ومسرح للقصص الحيوية حول الحياة ؛ ومهما يكن من ضيق فى مداها ، فإنها من الرحابة بحيث تتسع لكل الوجدانات الإنسانية . وأما دائرة المستوى العادى للجماعة فهى ، على العكس ، شىء جامد ميت على الرغم من رحابة مداها وانفراج أطرافها ؛ وهى شىء قد وجد بالفعل ، لا إبهام فيه ولا خوف عليه من المخاطر . إنها بنيت ، كما يبنى جذع الشجرة ، من تحجرات متتابعة لمناطق فعالة متعاقبة . وإن الحاضر الذى نعيش فيه بما فيه من مشاكل وقلاقل ، ومن مسابقات فردية ، ومن انتصار و انهزام ، سينقضى سريعاً ويصبح عند الأكثرية فى حيز النسيان ، ويترك أثره الضئيل على تلك الكتلة الساكنة ؛ ثم يمتلىء الفراغ الذى تركه بفصول جديدة وبممثلين جدد . وعلى الرغم من أنه قد يكون حقاً ، كما يحدث سبنسر ، أن المناطق اللاحقة أضيق بالضرورة من سابقتها ، ومن أنه عند ما تتحكم المبادىء الخلقية وتسود ، يختفى كثير من المنازعات الإنسانية وتتغلب روح التساهل والتسامح فى جميع المسائل الجدلية ، — على الرغم من حقيقة كل ذلك ، فسيكون هناك حتما ، حتى فى ذلك العصر الضيق ، كثير من الوله والحنان ، وكثير من الانفعالات : فستوجد المعارك والانهزامات ،

وسيمجّد النبغاء ويحتقر المنهزمون الضعفاء ، كما كان الشأن فى عهد الفروسية الغابر، وسيظل القلب الإنسانى بعيداً عن كثير مما كان له فى الأماكن الحصينة ، ومكرساً كل ميوله ووجداناته على المحتمل من الحقائق الفانية التى لا تزال بعيدة عنه متأرجحة فى ميزان القضاء .

وإن ذلك الذى يريده منا ألڤّن ، حين يطلب منا أن نهمل العناصر والجزئيات وألاّ نلتفت إلا إلى جملة النتائج ، لعكس عجيب للعمليات العلمية. وإنى أعتقد أن دراسة حالات المناطق الفعالة ، مهما كانت ضئيلة ، يعد أهم عمل للفيلسوف الاجتماعى ، وأن تأكيد الاختلافات الفردية وتأكيد أثرها الاجتماعى ليعدان من خير أعماله أيضاً . فدعنا نؤكد منها ومن أهميتها ؛ ودع كل واحد منا ـ حين يلتقط بواسله من التاريخ ويتصل بأرواحهم ، وحين يتخيل التغيرات العظيمة التى أوجدوها فى هذا العالم أيام أن كان كالعجينة فى أيديهم ، وحين يتصور الأشياء التى جعلوها من المحالات بعد أن كانت من الممكنات ـ يقوّى من نفسه ، ويُلهب تلك الطاقة التى قد تكون كامنة عنده ؛ علّه ينتفع بما ضربوا من مثل ، ويكون من النبغاء أيضاً .

ذلك هو المبرر الخالد لفكرة تمجيد الأبطال . وأما سخرية علماء الاجتماع منها واستهانتهم بها ، فسببها أنهم يعتبرونها خروجا على قوانينهم العامة وعلى مايسمونه بالمستوى العام. قد يكون الفرق ضئيلاً بين أمريكا ، التى أنقذها واشنطون ، وبين أمريكا ، التى ينقذها أى شخص أمريكى آخر ، كما يقول ألڤّن . نعم ، قد يكون ضئيلاً ، ولكنه مهم ، كما يقول صديق النجار. ولقد كان من الضرورى أن تتمخض الثورة الفرنسية عن عقلية جبارة فى وضع النظم والقوانين ؛ ولكن الذى يمكن اعتباره أمراً عرضياً محضاً هو أن تتصف هذه العقلية بتلك الصفات العليا التى امتاز بها نابليون بونابارت .

وهل كان لرأى الحيوانات الأليفة والمتوحشة حول المسائل ، التى تعتبرها هى عديمة الأهمية ، من قيمة فى التشريعات المتعلقة بالعطف على الحيوان ، التى جاءت بها المسيحية ؟

إن الذى يوجد للموضوع أهميته هو تعلق اختيار المخلوقات ذوات الشعور به. وذلك هو المشرع المطلق فى هذه الناحية . ولا يمكننى أن أعتبر حديث المعاصرين من مدارس علم الاجتماع حول المستوى العام ، والقوانين العامة والميول القضية ، مع مايتصل بذلك من بخس لأهمية الاختلافات الفردية حقها ، إلا نوعاً ضاراً من الجبر بعيداً كل البعد عن الأخلاق . افترض أن نوعاً من التوازن الاجتماعى قدر له أن يكون ، فأى توازن هو ، ـ أهو ماتراه أنت أم ما أراه أنا ؟ وهنا توجد مشكلة المشاكل ، التى لايمكن أن يحلها أى بحث حول المستوى العام للجماعات .